الفجيعة

قصة بقلم الدكتور احمد قائم

هكذا فجأة ، انتهى كل شيء تقريبا ولم يبق سوى ذلك الخيط من الماضي ، الذي يشدني بقسوة وشماتة . لم يرد له أن ينقطع أو يحترق ولست أعلم اذا كان الوقت كفيلا بأن يتلفه أو يضيعه وسط زحام الاحداث المجهولة القادمة .

وحيدا تلفني الحيرة ويطفى عليّ الشرود ، لاول مرة أحسست بقيمة الاشياء الثمينة التي تختفي دون مقدمات . صوت والدتي يصل الى أذني متقطعا حادا ، لقد تبينته واضحا رغم نواح الكثيرات اللواتي اجتمعن في بيت جيراننا ، دار الفقيدة .

هل كانت والدتي تحب مريم كثيرا حتى تبكيها بهذه المرارة ؟ أم تراها تبكيني أنا وتندب مصيري ؟ كيف حدث هذا ولماذا حدث ؟ أنا أعلم كما يعلم الجميع اننا سنموت .. دون استثناء ، ولكن لماذا قتلت مريم بالذات صاحبة السنوات العشرين ؟

هو حادث سيارة اذن ! والله ، أليس من حقه أن يحمي رعاياه ويدافع عنهم ؟ مريم كانت تحب الله . لم تقترف اثما يستحق أن تقتل لاجله ، اني أعرفها جيدا ، ثم انها كانت ما تزال فتية وتستطيع أن تكفر عن ذنوبها اذا كان ثمة من ذنوب ، فلماذا لم تمنح الفرصة ؟

هي سرعة سائق مخمور ، ولكن ما ذنبها ؟ كان يجب أن تعيش كالاخرين ، كان يجب أن تعيش تجربة الحياة .. الحياة كاملة بلذتها وقساوتها ، ثم تقابل المصير المحتوم ، كالاخرين تماما ، أما الان فماذا سيقول لها الله ؟ ترى هل تقابله ؟

السماء متلبدة بالغيوم ، لقد اختفى ضوء القمر واحتجبت النجوم .. وأنا وحدي ، أهلي يشاركون الجيران مأساتهم غير عالمين بأن المأساة انما تنبت هنا في كياني وتترسخ جذورها في الصميم ، رحماهم فهم يجهلون انهم أحق الناس في المواساة .

سنوات ثلاث من الحب اقتلعها سائق مخمور وزرعت عجلات سيارته الآثمة ، الحقد في صدري والتيبس في قلبي ورسمت لي طريق الحزن ، طريق الاسى . ما أضعف ذلك السائق المخمور ، لقد عجز عن قطع الخيط ، لم يستطع اجتياح الماضي والحاقه بالمستقبل ، ولكن ماذا يفيد الماضي ؟ ماذا يفيد دون مستقبل ؟

والنحيب ، هذا النحيب الذي يقطع أفكاري ويشل تخيلاتي أهو احتجاج ؟ وهل يتحتم عليّ أن أبكي ؟ انني أريد أن أحتج ، أريد أن يرتفع صوتي الى الآفاق البعيدة مطالبا تبريرا لما حدث ، ولن أقتنع بالطبع ، لن أقبل الامر الواقع بل سأثور مناديا بتحقيق العدالة بين البشر ، وأعتقد انني سأجد رفاقا وسيجدون بدورهم رفاقا آخرين ، وسنقوم بمظاهرة انسانية .

لن نتوقف ، واذا حدث وقوبلنا بسائقين مخمورين وسيارات آثمة أخرى ، فلن ينتهي الامر لاننا سنتابع مسيرتنا هناك ، حيث نذهب .

تعالى النحيب أكثر فأكثر ولم أستطع الاحتمال أكثر ، وعندما تنازعتني الافكار بين أن أنزل الى الشارع للبحث عن مصيري أو أن أذهب للمشاركة في المأتم ، فضلت الامر الاول ، وما هي الا لحظات حتى كنت أقف على الشارع تحت الامطار .

انتظرت طويلا وسط الظلام ، وعندما يئست من العثور على سيارة آثمة وسائق مخمور ، عدت الى المنزل . كان الصمت قاتلا وموحشا . لقد انتهى المأتم وفي تلك الساعة المتأخرة من الليل ، شعرت بأني عاجز حتى عن البكاء ولم أستطع النوم ، لقد كان الخيط يشدني بلين وشماتة .